تفسير سورة لقمان ـ لغة واصطلاحاً

الدكتور سليمان معرفي سفر
أستاذ مساعد بقسم التفسير والحديث
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية جامعة الكويت

تعريف التفسير[1]

أ ـ معنى التفسير لغة[2]:

عند تتبع معاني هذه اللفظة نجد أنها تدور على الكشف والبيان، وسواء كان ذلك في المعاني أم المحسوسات والأعيان. فيقال: فسر الكلام: أي أبان معناه وأظهره، كما يقال: فسر عن ذراعه: أي كشف عنها.

فهو إخراج الشيء من مقام الخفاء الى مقام التجلي[3].

قال ابن فارس: «الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه. من ذلك الفسرُ، يقال: فسرت الشيء وفسرته[4]». (أ.هـ).

وقد اختلف في مادة اشتقاقه على أقوال:

الأول: أنه مأخوذ من «التفسِرَة» وهو نظر الطبيب في بول المريض لمعرفة علته.

قالوا: فكذلك المفسر ينظر في الآية لاستخراج حكمها ومعناها.

وممن اختار هذا القول الزركشي[5] وصديق حسن خان[6] رحمهما الله تعالى.

والحقيقة أن نظر الطبيب هذا مأخوذ من الفسر كما في الصحاح[7] واللسان[8] والقاموس[9].

قال ابن فارس: «وأما اشتقاقه فمن الفسر» ثم ساق بسنده الى الخليل قال: «الفسر: البيان، واشتقاقه من فسر الطبيب للماء: إذا نظر إليه، ويقال لذلك: التفسرة أيضاً[١٠]» (أ.هـ).

وقال في معجم المقاييس: «والفسر والتفسرة: نظر الطبيب الى الماء وحكمه فيه[١١]» (أ. هـ).

ونقل الأزهري عن الليث: «وكل شيء يُعرف به تعرُّف تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرته[١٢]» (أ.هـ).

أما الجوهري فقد عدّ «التفسرة» من المُولد[١٣].

الثاني: أنه تفعيل من الفسر، الذي هو البيان والكشف[١٤] وظاهر صنيع ابن فارس[١٥] والأزهري[١٦] والجوهري[١٧] وابن منظور[١٨] والفيروزآبادي[١٩].

والسيوطي[٢٠] يشعر باختيارهم هذا القول. وهو الراجح والله أعلم.

الثالث: أنه مأخوذ من قول العرب: فسرت الفرس، فسرته. أي: أجريته وأعديته إذا كان به حُصر ليستطلق بطنه.

وكان المفسر ـ على هذا المعنى ـ يجري فرس فكره في ميادين المعاني ليستخرج شرح الآية ويحل عقد إشكالها.

قال الألوسي: «ولعله يرجع لمعنى الكشف، كما لا يخفى، بل كل تصاريف حروفه لا تخلو عن ذلك كما هو ظاهر لمن أمعن النظر»[٢١] (أ.هـ).

ولا يخفى أن هذه المعاني الثلاثة متقاربة، أما الأول والثاني فظاهر أنهما يرجعان الى معنى واحد.

وأما الثالث: فيقال: إنه آيل الى معنى الظهور والانكشاف أيضاً.

قال أبو حيان: «التفسير في اللغة: الاستبانة والكشف. قال ابن دريد[٢٢]»: ومنه يقال للماء الذي ينظر فيه الطبيب تفسرة. وكأنه تسمية بالمصدر؛ لأن مصدر فعل جاء أيضاً على تفعِلة. نحو: جرب تجربة، وكرّم تكرمة، وإن كان القياس في الصحيح من فعّل التفعيل. كقوله تعالى: (وأحسن تفسيراً).

ويطلق أيضاً التفسير على التعرية للانطلاق. قال ثعلب[٢٣]: تقول: فسرت الفرس: عريته

لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري»[٢٤] (أ.هـ).

وقال الزركشي: فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به، ويقال فسرت الشيء أفسره تفسيراً، وفسرته أفسره فسراً، والمزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال، وبمصدر الثاني منهما سمّى أبو الفتح بن جني كتبه الشارحة «الفسر»[٢٥] (أ.هـ).

الرابع: أنه مأخوذ من مقلوب لفظه. تقول العرب: سفرت المرأة إذا كشفت قناعها عن وجهها. وسفرت البيت إذا كنسته، ومنه قيل للسفر سفر لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وعليه فيكون اشتقاقه من «التفسير» على قياس جذب وجبذ. وصعق وصقع[٢٦].

وهذا القول فيه ضعف لا يخفى. قال الألوسي: «والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه»[٢٧] (أ.هـ).

وذهب الراغب الى أن الفسر يستعمل لإظهار المعنى المعقول، والسفر لإبراز الأعيان للأبصار[٢٨].

وهذا التفريق فيه نظر، إلّا إن قصد به غلبة الاستعمال، أما من حيث المعنى اللغوي فلا فرق، فأنت تقول: أسفر عما في نفسه. وهذا راجع الى المعنى الأول والله أعلم.

الخامس: أنه مأخوذ من فسرت النورة، إذا نضحت عليها الماء لتنحل أواخرها وينفصل بعضها من بعض، وكأن التفسير يفصل أجزاء معنى المفسر بعضها من بعض حتى يتأتى فهمه والانتفاع به. كما أن النورة لا يتهيأ الانتفاع بها إلّا بتفصيل أجزائها بتفسيرها. وقد ذهب الى هذا القول الطوفي[٢٩]. وهو أضعفها.

ب ـ معنى التفسير اصطلاحاً[٣٠]:

الكلام المدون في كتب أهل العلم في معنى التفسير اصطلاحاً كثير جداً، والأقوال فيه متنوعة، وقد وقفت له في كلامهم على ثلاثة عشر تعريفاً، منها القريب المحتمل ومنها البعيد المردود.

وبعد التأمل اخترت ما أظنه أجودها وهو: علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن العزيز من

حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

تفسير سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم* تلك آياتُ الكتاب الحكيم* هدى ورحمة للمحسنين* الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون* ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذابٌ مهين* وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أُذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم* خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم* خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابةٍ وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم* هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾ [٣١].

تفسير سورة لقمان

سورة مكية: عدد آياتها أربع وثلاثون آية.

تعالج موضوع العقيدة ووحدانية الرب.

سميت بهذا الاسم لأن الله تعالى ذكر فيها خبر لقمان الحكيم ووصاياه الثمينة.

بدأت السورة بذكر القرآن الحكيم المعجزة الخالدة.

تتحدث عن دلائل القدرة الإلهية الباهرة.

تتحدث عن وصايا لقمان الحكيمة.

تتحدث عن نعم الله المستفيضة المستلزمة لعبادته وشكره.

ذكرُ أهل الكفر والجحود الذين يعبدون غيره تقليداً لآبائهم وأجدادهم من عبدة الأوثان.

تتحدث بعد ذلك عن علم الله الواسع الشامل.

تصور الآيات موقف الناس وهم في لجة البحر والموج يغشاهم من كل مكان.

وفي الختام تبين السورة ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع الوالد ولده، ولا مولد والده، ولا ينفع فيه حسب ولا نسب إلّا من أحسن العمل وأخلص العبادة.

الحروف المقطعة في أوائل السور:

اختلف المفسرون فيها الى أقوال نذكر منها:

هي مما استأثر الله بعلمه ولم يفسروها.

هي أسماء السور.

هي فواتح افتتح الله بها القرآن.

هي من أسماء الله تعالى.

هي قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى.

ذكرت ليعرف بها أوائل السور.

لبيان إعجاز القرآن، وأنه مؤلف من الحروف العربية، التي يتكلم بها العرب، وهم مع ذلك لا يستطيعون الإتيان بمثله. وهذا أرجح الأقوال وأقربها الى الصواب، وقد سبق بيان ذلك عند تفسير سورة (ق).

(تلك): مبتدأ، (آيات): خبر، إشارة الى آيات الكتاب، وهو القرآن، وهو إشارة الى البعض إشارة الى الكل.

(الحكيم): ذي الحكمة أو الله تعالى بتقدير: قائله: يعني الحكيم قائله.

(هُدى ورحمة): صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون فيه هدى، وإعراب هدى:

يحتمل أن يكون مرفوعاً على النعت.

أو منصوباً على الحال.

وخُصت الهداية والرحمة للمحسنين، كما في قوله تعالى: (هُدى للمتقين)[٣٢]، وفي قوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾)[٣٣] لأن القرآن هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلّا الأبرار.

(شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان).

(للمحسنين): للعمل الفاعلين للحسنات، والإحسان أعلا مراتب الدين كما في الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه»[٣٤].

ثم وصفهم الله تعالى بأنهم: (الذين يقيمون الصلاة): قال ابن عباس: «بفروضها، بإتمام ركوعها وسجودها والتلاوة والخشوع والإقبال عليها».

وقال قتادة: «المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها».

(الذين): في محل جر على وصف المحسنين.

(ويؤتون الزكاة): المفروضة، والسورة وإن كانت مكية إلّا أن تشريع الزكاة كان في مكة إجمالاً، وفي المدينة تفصيلاً.

(وهم بالآخرة هم يُوقنون): أي يعتقدون يقيناً لا شك فيه). (هم): ضمير فصل لا محل له.

والمحسنون يأتون بهذه الأعمال وغيرها ولكن اقتصر هنا على أفضلها وأشرفها.

(أُولئك على هدىً من ربهم): على بصيرة وبينة ومنهج واضح. وعبر بـ(على): دليل تمكنهم من الهداية.

(وأولئك هم المفلحون): والفلاح: الفوز والنجاة والبقاء في النعيم والخير.

ومنه في الأذان: حي على الفلاح. أي: هلم على بقاء الخير.

والفلح: الشق. مصدر فلحت الأرض إذا شققتها للزراعة[٣٥].

(ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضل)...

بعد أن بين حال المهتدين، أتبعه بذكر حال المعرضين عن كلام الله تعالى.

ـ* ما قيل في سبب نزول هذه الآيات لا يصح فيه شيء. «النضر بن الحارث» وذهابه الى ملوك الفرس وإحضار مغنيتين... لا يصح.

(ومن الناس: (في محل رفع مبتدأ، خبره): من يشتري (الاسم الموصول) من).

(لهو الحديث): هو الغناء، وكل ما يلهي عن الخير.

ومن الأدلة على أنه هنا الغناء:

عن ابن عباس: «نزلت في الغناء وأشباهه»[٣٦].

عن ابن مسعود قال: «هو الغناء والذي لا إله إلّا هو ـ يرددها ثلاث مرات».

عن عكرمة قال: «هو الغناء»[٣٧].

عن مجاهد قال: «اللهو: الطبل».

عن الحسن البصري قال: «نزلت في الغناء والمزامير».

وعبر بالاشتراء: لأن هذا اللفظ يذكر في الاستبدال والاختيار كثيراً.

وقال ابن مسعود أيضاً: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، والذكر ينبت الإيمان كما ينبت الماء البقل»[٣٨].

قال البخاري: قال هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد: حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر: حدثنا عطية بن قيس الكلابي: حدثنا عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: حدثني أبو عامر ـ أو أبو مالك ـ الأشعري، والله ما كذبني: سمع النبي (ﷺ) يقول «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر، والحرير، والخمر، والمعازف، ولينزلن أقوام الى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غداً، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير الى يوم القيامة[٣٩].

وأخرج الترمذي وابن ماجة عن أبي أمامة عن رسول الله (قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام، في مثل هذا أنزلت الآية ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضل عن سبيل الله﴾[٤٠] الى آخر الآية.

(ليُضل): اللام للتعليل، وقيل: اللام للعاقبة، أي: فيصير أمرهُ الى الضلال.

(عن سبيل الله): طريق الهدى وهو دين الله الذي اختاره لعباده، وصراطه المستقيم (وأن هذا صراطي)[٤١]...

(بغير علم): في محل نصب على الحال (قل هذه سبيلي أدعو)[٤٢]... يعني: بغير حجة.

(ويتخذها هُزواً... : (العطف على يُضل، والهاء في) ويتخذها) يعود الى السبيل، فتكون من جملة التعليل للتحريم، فيكون المعنى: يشتري لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله ولاتخاذ السبيل هزواً.

والسبيل: يذكر ويؤنث: «مستقيمة ومستقيم».

(أولئك لهم عذابٌ مهين): الشديد المذل، كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر.

(وإذا تُتلى عليه آياتنا): الضمير يعني: المستهزئ.

(ولى مستكبراً): أعرض عنها حال كونه مستكبراً.

(كأن لم يسمعها): في محل نصب على الحال.

(كأن في أذنيه وقراً) حال ثانية. والوقر: الثقل والصمم.

وفيه مبالغة في إعراض ذلك المتكبر. والمعنى: أن هذا المقبل على اللهو والطرب إذا تليت عليه آيات القرآن ولى عنها وأعرض وتصامم وما به من صمم كأنه ما سمعها لأنه يتأذى بسماعها.

«لا يجتمع القرآن مع اللهو والطرب في قلب واحد».

(فبشرهُ بعذاب أليم): أي: البليغ في الألم. وذلك يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

والبشارة غالباً ما تستعمل في الخير، وتكون في الشر كما هاهنا. من باب التهكم كقولهم: تحية بينهم ضربٌ وجيع.

ثم بين سبحانه حال الفريقين، المؤمنين بالله وبآياته، وبين المعرضين فقال سبحانه: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم﴾.

(آمنوا وعملوا الصالحات): إخلاص وإصابة، وهما شرطا العمل الصالح المتقبل. حتى يكون العمل متقبلاً لابد أن يتوافر فيه هذان الشرطان، فإذا اختل واحد بطل العمل.

قال تعالى: ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾[٤٣] قال الفضيل: «أخلصه وأصوبه»، وقد تقدم القول فيه.

(لهم جنات النعيم): يعني: نعيم الجنات، عكسه للمبالغة، أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار، فليس فيها غير النعيم.

(خالدين فيها): منصوب على الحال، فهم مقيمون في ذلك دائماً لا يتحولون عنها.

(وعد الله حقاً): أي: كائن لا محالة ولا خُلف فيه والله لا يخلف الميعاد، وهو على كل شيء قدير لا يعجزه شيء ولا يمنعه مانع.

(وهو العزيز): الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ولا مثل له ولا نظير.

وفي اللغة العز: القوة والشدة والرفعة والامتناع، وهو خلاف الذل[٤٤].

(الحكيم): في أقواله وأفعاله، الذي يضع الأمور في نصابها بحكمته وعدله فلا يقول ولا يفعل إلّا الصواب.

وبيّن عزته وحكمته بقوله: ﴿خلق السماوات بغير عمدٍ ترونها﴾ العمد: جمع عماد.

الضمير في (ترونها (على القول الراجح يعود الى السماء وفي القول الثاني يعود الى العمد، وقال في سورة الرعد: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمدٍ ترونها﴾...)[٤٥].

والمعنى: لها عمد ولكن لاترى، بغير عمد مرئية، أو رفعها بغير عمد كما ترونها، والثاني هو اللائق بالسياق فقوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾...[٤٦] وعليه يكون قوله: (ترونها) تأكيداً لنفي العمد، فهي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

(وألقي في الأرض رواسي): يعني: الجبال أرست الأرض وثقلتها وثبتتها حتى استقرت.

(أن تميد بكم): لئلا تضطرب بأهلها.

والجملة (أن تميد بكم): في محل نصب على العلة.

(وبث فيها من كل دابةٍ): من كل نوع من أنواع الدواب.

(وبث): يعني: نشر.

(وأنزلنا من السماءِ ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم): (السماء): السحاب.

يعني: من كل صنف من النبات.

(كريم): أي: حسن المنظر.

(هذا خلق الله: (هذا): إشارة الى ما ذكر من خلق السموات والأرض وهو مبتدأ وخبره (خلق الله).

(فأروني ماذا خلق الذين من دونه): من آلهتهكم التي تعبدونها.

(أفمن يخلق كمن لا يخلق)[٤٧].

والاستفهام: للتقريع والتوبيخ. (ماذا).

والأمر: للتعجيز والتبكيت. (أروني).

(بل الظالمون): يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره. (إن الشرك لظلمٌ عظيم)[٤٨].

(في ضلال): أي جهل وعمى.

(مبين): أي واضح ظاهر لا خفاء فيه، فقرر ظلمهم أولاً وضلالهم ثانياً.

(بل): للإضراب والإعراض، فأعرض عن تبكيتهم الى الحكم عليهم بالضلال.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد* وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم* ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير* وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون* يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير* يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور* ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور* واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾.

(ولقد آتينا لقمان الحكمة): صح عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً[٤٩]. الواو حرف قسم، واللام جوابه.

قد: حرف تحقيق لاتصالها بالماضي والمضارع، وتكون حرف توقع إذا اتصلت بالمستقبل[٥٠].

وهذا يرجح كونه غير نبي، لأن الأنبياء تبعث في أحساب قومها. وهذا قول جمهور أهل العلم بأن لقمان لم يكن نبياً وهو الصحيح. وأثر ابن عباس له حكم الرفع؛ لأنه من قبيل الإخبار بالغيب الذي لا يُعلم إلّا عن طريق المعصوم.

آتيناه فعل ماض مبني على السكون، ونا فعل، لقمان مفعول، والحكمة مفعول ثان.

(الحكمة): أي الفهم والعلم والتعبير بالحق فهي العلم النافع والعمل الصالح، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً.

(أن أشكر لله): أي: أمرناه أن يشكر لله عز وجل على ما أتاه ومنحه من الفضل دون أهل زمانه. وأن تفسيرية. واشكر فعل أمر مبني على السكون.

(ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه): أي: إنما يعود نفع ذلك على الشاكرين لقوله تعالى: (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون)[٥١].

فشكر الله على نعمه يعود نفعه على العبد الشاكر، فالله تعالى غني عن خلقه. الواو للاستئناف، ومن مبتدأ، يشكر فعل مضارع مجزوم بالسكون.

(ومن كفر فإن الله غني حميد) أي: غني عن العباد لا يتضرر بذلك، ولا يحتاج الى أحد من خلقه، بل الخلق محتاجون إليه.

(حميد): مستحق للحمد: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

والحمد نقيض الذم، والحمد أعم من الشكر لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته[٥٢].

والله تعالى حميد: محمود عند خلقه بما أنعم عليهم، وهو محمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله[٥٣].

(وإذ قال لقمان لابنه): معطوف على ما تقدم. أو استئناف.

(وهو يعظه): يخاطبه بالمواعظ التي ترقق القلب. (جملة حالية).

إذ: ظرف متعلق بمحذوف تقديره (اذكر).

(يا بني): تصغير ابن مضافاً الى ياء المتكلم إشفاقاً عليه ومحبة له.

(لا تُشرك بالله): هل يدل على أن ابنه كان مشركاً؟

(إن الشرك لظلمٌ عظيم): أي: أعظم الظلم. واللام للتوكيد.

روى البخاري عن ابن مسعود قال: لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم). شق ذلك على أصحاب رسول الله (وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله»:) إنه ليس بذاك، ألا تسمع الى قول لقمان: (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)[٥٤].

ويدل هذا الحديث على أن قوله: (إن الشرك لظلمٌ عظيم) إنما هو من كلام لقمان، وليس من كلام الله تعالى.

وهذه العبارة تعليل لما قبلها من النهي عن الشرك.

وفيه أن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح الأعمال ومثاله من القرآن (لئن أشركت ليحبطن عملك)...[٥٥].

(ووصينا الإنسان بوالديه) الى قوله: (بما كنتم تعملون): جملة اعتراضية لتأكيد النهي عن الشرك بالله.

وقرن وصيته بعبادة الله وحده بالبر بالوالدين، وشكره بشكرهما دلالة على عظيم حقهما وأنه من أعظم الحقوق على الولد وأشدها وجوباً.

(حملته أمه وهناً على وهن): في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف.

(وهناً): منصوب على الحال من أمه.

(وفِصاله في عامين): الفصال: الفطام: مبتدأ وخبره شبه الجملة.

اختلفوا في الخبر إذا كان شبه جملة (جار ومجرور أو ظرف) إلى أقوال:

متعلق شبه الجملة هو الخبر وهو مقدر تقديره «كائن» وفصاله كائن في عامين.

المتعلق وشبه الجملة هو الخبر.

شبه الجملة هو الخبر، وهو الصواب.

قال تعالى: (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً)[٥٦] دل على أن أقل الحمل ستة أشهر.

(أن أشكر لي ولوالديك): أن المفسرة، يعني: والأمر والمقصود أن اشكر لي ولوالديك.

قال: «(لا يشكر الله من لا يشكر الناس)»[٥٧].

(إلي المصير): تعليل لوجوب الأمر، أي: الرجوع إلي لا الى غيري.

(وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم): لا دليل على هذا الصنم. قال(ﷺ): «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم)» (٥٨).

(فلا تطعهما): في ذلك. إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (٥٩) و«إنما الطاعة في المعروف»[٦٠].

سبب نزولها: قصة أم سعد بن أبي وقاص:

حلفت أم سعد بن أبي وقاص أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه. ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك. وأنا أمك وأنا آمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثاً حتى غُشي عليها من الجهد. فقام ابن لها يقال له عُمارة فسقاها. فجعلت تدعو على سعد. فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾[٦١].

(وصاحبهما في الدنيا معروفاً): يعني: بمعروف. منصوب بنزع الخافض والتقدير بمعروف.

(واتبع سبيل من أناب إلي): أي: من رجع إليّ من عبادي الصالحين بالتوبة والإخلاص.

(ثم إلي مرجعكم): جميعاً لا إلى غيري. هذا قصر.

(فأنبئكم بما كنتم تعملون): أي: أخبركم عند رجوعكم بما كنتم تعملون من خير وشر. «فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه)»[٦٢].

ثم شرع الله تعالى في حكاية كلام لقمان لابنه:

(يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل): الضمير في (إنها) يعود الى الخصلة من الإساءة والإحسان.

(مثقال): وزن. والخردل أصغر الحبوب (الرشاد).

(فتكن في صخرة): زيادة في خفائها.

(أو في السماوات أو في الأرض) أو حيث كانت (يأت بها الله): يحضرها، ويحاسب

فاعلها. قال تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره)[٦٣] هل هذا الحساب على إطلاقه؟ أو ما هي أنواع الحساب؟.

(إن الله لطيفٌ خبير): أي لطيف العلم لا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، فعلمه يصل الى كل خفي.

ومن معاني اللطيف في حق الله تعالى:

أنه لطيف بعباده يرفق بهم ويوصل إليهم مصالحهم.

وأنه لطيف عن أن يدرك بالكيفية.

فهو سبحانه: لطيف العلم، لطيف عن الإدراك بالكيفية، لطيف يرفق بعباده.

وهو (خبير): بكل شيء لا يغيب عنه شيء، يعلم دقائق الأمور.

وهذا يبعث على المراقبة والخوف الدائمين لله تعالى.

و(مثقال): بالنصب خبر كان. واسمها: أحد تلك المقدرات: الخطيئة أو الحسنة أو الخصلة.

ثم حكى عنه أنه أمر ابنه بالصلاة والأمر والنهي والصبر على المصيبة.

ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات وعماد الخير كله.

(أقم الصلاة): بحدودها وفروضها وأوقاتها.

(وأمر بالمعروف وانه عن المنكر): بحسب طاقتك وجهدك وفق الضوابط والأصول.

(واصبر على ما أصابك): لأن الآمر الناهي لابد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر (إن ذلك من عزم الأمور) عظائمها. والعزيمة ضد الرخصة.

قال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه»[٦٤].

(ولا تُصعر خدك للناس): الصعر: الميل، إذا أمال وجهه وأعرض تكبراً. والصعر: داء يلوي عنق البعير.

(ولا تمش في الأرض مرحاً): أي: خيلاء متكبراً. و(مرحاً): حال. والمختال يمرح في مشيته.

رأى مطرف بن عبد الله المهلب وهو يتبختر في جبة خز فقال: يا عبد الله، هذه مشية

يبغضها الله ورسوله، فقال: أما تعرفني؟ قال: بلى أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة. فمضى المهلب وترك مشيته تلك[٦٥].

(إن الله لا يحب كل مختال فخور): جملة تعليلية للنهي عن الاختيال.

والفخور: الذي يفتخر على الناس بما له من المال أو الشرف أو القوة أو غير ذلك مما يفتخر به الناس عادة.

والمختال: المعجب في نفسه، ما الفرق بين العجب والغرور؟

قال رسول الله (ﷺ): «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صورة الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون الى سجن في جهنم يُسمى بولس تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»[٦٦].

(واقصد في مشيك): أي: توسط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء.

وكان النبي (ﷺ) إذا مشى أسرع. وقال تعالى: (يمشون على الأرض هوناً)[٦٧]، يعني: بوقار وسكينة وعدم اختيال.

(واغضض من صوتك): اخفضه ولا تتكلف في رفعه.

(إن أنكر الأصوات لصوت الحمير): جملة تعليلية للأمر بالغض من الصوت.

و(أنكر الأصوات): أبغضها وأوحشها وأقبحها، فإن غاية من رفع صوته أنه يُشبه بالحمير في علوه ورفعه.

واللام في (لصوت) للتأكيد.

والتشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم.

عن ثابت بن قيس قال: ذكر الكبر عند رسول الله (ﷺ) فشدد فيه فقال («إن الله لا يحب كل مختار فخور») فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويتعجبني شراك نعلي وعلاقة سوطي، فقال: «ليس ذلك الكبر، وإنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس»[٦٨].

وفي الحديث: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[٦٩].

الغمط: الاحتقار. وسفه الحق: الاستخفاف به. قال (ﷺ): «لا يدخل الجنة من كان

في قلبه مثقال ذرة من كبر».

هذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير* وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير* ومن يُسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور* ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور* نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم الى عذاب غليظ* ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون* لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني الحميد* ولو أنما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم* ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدةٍ إن الله سميع بصير﴾[٧٠].

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة): لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع الى توبيخ المشركين وتبكيتهم وإقامة الحجج عليهم. (ألم تروا) للتنبيه[٧١].

(سخر): ذلل. (ما في السماوات) من نجوم وسحاب وأمطار وملائكة (وما في الأرض) من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار وبحار.

(وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة): أي: اتم وأكمل عليكم نعمه وعمكم بها.

(ظاهرة): ما تدرك بالعقل والحس.

(وباطنة): ما لا يدرك للناس ويخفى عليهم إلّا بعد تفكر وتأمل.

(ومن الناس من يُجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير): أي: في شأن الله سبحانه في توحيده وصفاته مكابرة وعناداً، بعد ظهور الحق له وقيام الحجة عليه.

ولهذا قال: (بغير علم ولا هدى) من عقل ولا نقل ولا مستند من حجة صحيحة (ولا كتابٍ) مأثور صحيح (منير) مبين مضيء.

فالجدال بعلم أمر محمود، قال تعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن...)[٧٢].

قال (ﷺ): «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً»[٧٣].

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله): أي: على رسوله من الشرائع المطهرة.

(قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا): أي: لم يكن لهم حجة إلّا اتباع الآباء الأقدمين.

قال تعالى: (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)[٧٤]، (بل) حرف إضراب.

(أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير): الاستفهام: للاستبعاد والتبكيت والتقريع والتعنيف، وجواب لو محذوف، أي يدعوهم فيتبعونه[٧٥].

الضمير في (يدعوهم) يعود الى الآباء أو الى المتبعين. ويجوز عوده على الجميع.

والسعير: النار الموقدة المتهيجة.

والجملة (يدعوهم) في محل نصب على الحال.

(ومن يُسلم وجهه الى الله): أي: يفوض أمره إليه سبحانه ويخلص له في عبادته وينقاد لأمره ويتبع شرعه.

(وهو محسن): في عمله باتباع أمره واجتناب نهيه.

(فقد استمسك بالعروة الوثقى): العروة: المقبض: أي: اعتصم بالعهد الأوثق وتعلق به أنه لا يعذبه.

(والى الله عاقبة الأمور): أي مصيرها إليه لا الى غيره.

(ومن كفر فلا يحزنك كفره): أي: لا تحزن لذلك فإن كفره لا يضرك.

وفي هذا بيان لمهمة النبي (ﷺ) من إقامة الحجة لله على خلقه، وأنه ليس عليه هدايتهم، قال تعالى: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء)[٧٦].

فما على الرسول إلّا البلاغ، ونتيجة البلاغ ليس هو مسؤولاً عنها.

وفيه أن الرسول (ﷺ) كان يتألم ويحزن لعدم استجابة قومه له فنهاه الله تعالى عن ذلك. (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً)[٧٧]، وغير ذلك من

الآيات التي تحمل هذا المعنى.

(إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا): أي: نخبرهم بقبائح أعمالهم، أسلوب تهديد ووعيد.

(إن الله عليم بذات الصدور): فلا تخفى عليه خافية (سواءٌ منكم من أسر القول ومن جهر به)[٧٨]. وذات الصدور حقيقتها وما يدور في أعماقها.

(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه)[٧٩].

(نمتعهم قليلاً): منصوب لأنه صفة لمصدر محذوف، أي: تمتيعاً قليلاً.

(ثم نضطرهم الى عذاب غليظ): نلجئهم الى عذاب ثقيل فظيع شاق.

(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله): فهم يعترفون بأن الله تعالى هو خالق السموات والأرض وحده لا شريك له. ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلقٌ له وملكٌ له، فلم ينفعهم إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق، فهذا توحيد ربوبية، وهو من أقسام التوحيد الثلاثة التي لا يكمل توحيد إنسان إلّا بها مجتمعة وهي: توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات. وتوحيد الربوبية هذا لا ينفع وحده ما لم ينضم إليه القسمان الآخران، ولذلك لم ينفع المشركين اعترافهم وإقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق وهو الرازق، لأنهم لم يحققوا توحيد الالوهية فأشركوا مع الله غيره. فالذي يعترف لله تعالى بالخلق والرزق والتدبير لابد أن يتوجه إليه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة.

(قل الحمد لله): على اعترافكم بذلك.

(بل أكثرهم لا يعلمون): أضرب عن ذلك فقال: (بل أكثرهم لا يعلمون): أن الخالق هو الذي تجب له العبادة دون غيره.

(لله ما في السماوات والأرض): ملكاً وخلقاً.

(إن الله هو الغني الحميد): (الغني): عما سواه، وكل شيء فقير إليه.

(الحميد): المستحق للحمد في جميع ما خلق وشرع وهو المحمود في الأمور كلها. وقد سبق شرح ذلك.

(ولو أنما في الأرض من شجرةٍ أقلام...): أي: لو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته

وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولو جاء أمثالها مداداً.

وذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ولا أن ثمة سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما تقوله الإسرائيليات.

قال تعالى في الآية الأخرى: (قل لو كان البحر مِداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً)[٨٠].

و(البحر): مبتدأ. وخبره جملة (يمدُّه).

والجملة في محل حال: أي: والحال أن البحر مع سعته يمده سبعة أبحر.

وجواب (لو): (ما نفدت كلمات الله).

(إن الله عزيزٌ حكيمٌ): غالب لا يعجزه شيء، قد قهر كل شيء وغلبه، لا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه.

(حكيم): في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه، يضع الأمور في نصابها.

(ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة): أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم القيامة بالنسبة الى قدرته إلّا كنسبة خلق نفس واحدة.

(إن الله سميعٌ بصير): سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة الى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجلٍ مسمى وأن الله بما تعملون خبير* ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير* ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور* وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصدٌ وما يجحد بآياتنا إلّا كل ختارٍ كفور* يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جاز

عن والده شيئاً إن وعد الله حقٌّ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور* إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأي أرض تموتُ إن الله عليم خبيرٌ﴾[٨١].

(ألم تر): يصلح لكل أحد أو للرسول (ﷺ).

(أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل): أي: يدخل كل واحد منهما في الآخر.

(وسخر الشمس والقمر): أي: ذللهما، وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول. والجملة معطوفة على ما قبلها.

(كلٌّ يجري الى أجل مسمى):

قيل: الى غاية محدودة. وقت الطلوع ووقت الأفول.

وقيل: الى يوم القيامة.

يشهد للأول حديث أبي ذر قال (ﷺ): «يا أبا ذر أ تدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت»[٨٢] أي: «تطلع من المغرب».

وجملة (وأن الله بما تعملون خبير) معطوفة على (أن الله يولج الليل...).

(خبير): بما تعملون لا تخفى عليه منها خافية.

(ذلك): إشارة الى ما تقدم ذكره.

(بأن الله): الباء للسببية أي: ذلك بسبب أنه سبحانه هو الحق وغيره الباطل.

وإنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق وأن كل ما سواه من المعبودات باطل.

(هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل): أي: ما أشركوا به من صنم وغيره.

والباطل: نقيض الحق. وبطل الشيء: ذهب ضياعاً وخُسراً.

(وأن الله هو العلي الكبير): معطوفة على جملة (بأن الله هو الحق).

(العلي): الذي لا أعلى منه. ورد في القرآن في ثمانية مواضع.

فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر والصفات وعلو القهر.

(الكبير): الذي هو أكبر من كل شيء. فكلٌ خاضع حقير بالنسبة إليه.

(ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله): أي: بلطفه بكم ورحمته لكم. والفلك بالضم السفينة تذكر وتؤنث، وبالفتح الاستدارة[٨٣].

(ليريكم من أياته): (من): للتبعيض. يعني: بعض آياته. وهو: جري السفن في البحر بالريح أو ما يشاهدونه من قدرته أو ما يرزقهم الله في البحر.

(إن في ذلك لآيات لكل صبارٍ شكور): صبار في الضراء، شكور في الرخاء. قال: «(ﷺ) عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[٨٤].

(واذا غشيهم موج كالظلل): أي كالجبال أو السحب[٨٥]، لانه يأتي شيئاً بعد شيء ويركب بعضه بعضاً، قال الله تعالى: (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها)[٨٦].

وأصل الموج: الحركة والازدحام والاضطراب، ومنه ماج البحر وماج الناس دخل بعضهم في بعض.

(دعوا الله مخلصين له الدين): كما قال تعالى: (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلّا إياه)[٨٧]. على العكس من مشركي هذه الأمة، فإنهم في الشدائد يلجأون الى الأموات من الأولياء والصالحين يسألونهم النجاة ويستغيثون بهم.

(فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد): قال مجاهد: أي كافر، كما قال تعالى: (فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون)[٨٨].

قال ابن زيد: هو المتوسط في العمل. ورجحه ابن كثير واستدل بقوله تعالى: (فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد)[٨٩]. فهو المتوسط في العمل، مع أنه بعد الذي شاهده من الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات وما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام الدؤوب في العبادة والمبادرة الى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً.

(وما يجحد بآياتنا إلّا كل ختار كفور): الختار: هو الغدار. وهو الذي كلما عاهد نقض عهده. والختر: أتم الغدر وأبلغه. والجحود: الإنكار مع العلم[٩٠]؛ كما جاء في اللسان.

والكفور: جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها.

(يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده): أي: لا ينفعه بأي وجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه، ولا يقوم مقام صاحبه، جزى في الخير والشر، وجازا في الشر[٩١].

حديث: «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»[٩٢].

وحديث: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٩٣].

(يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً): إنذار منه سبحانه للناس من يوم المعاد. وتقوى الله أمر منه سبحانه بالخوف من يوم القيامة، وما فيه من أهوال.

(ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئاً): أي: لا يغني ولد عن والده شيئاً فلو أراد أن يفديه بنفسه فلن يقبل منه فإذا كان الوالد والولد وهما الغاية في الحنو والشفقة فغيرهما من باب أولى.

قال تعالى: (يوم يفر المرء من أخيه* وأمه وأبيه* وصاحبته وبنيه* لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه)[٩٤].

(إن وعد الله حق): لا يتخلف.

(فلا تغرنكم الحياة الدنيا): أي: لا تلهينكم بزخارفها وبالطمأنينة فيها فإنها زائلة. وغره: خدعه بالباطل.

(ولا يغرنكم بالله الغرور): يعني: الشيطان فإنه يغر ابن أدم ويعده ويمنيه كما قال سبحانه: (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً)[٩٥].

وقال: (وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور)[٩٦]. فالشيطان يمني الناس بالأماني الباطلة ويصدُهم عن الحق.

الأماني: قال بعضهم: «أنذركم سوف فإنها أكبر جنود إبليس».

(إن الله عنده علم الساعة): أي: علم وقتها الذي تقوم فيه، لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب. وفي الحديث: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[٩٧]. قال تعالى: (لا يُجليها لوقتها إلّا هو)[٩٨].

(وينزل الغيث): أي: لا يعلم ذلك غيره، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون، وهم: ميكائيل ـ عليه السلام ـ وأعوانه من الملائكة. والغيث المطر، وربما سُمي السحاب والنبات غيثاً.

(ويعلم ما في الأرحام) من الذكور والإناث والصلاح والفساد والشقاء والسعادة، ولكن إذا أمر بذلك أعلم الملائكة الموكلون بذلك لحديث البخاري: عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ـ (ﷺ) وهو الصادق المصدوق ـ قال: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع: برزقه وأجله، وشقيٌّ أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح. فوالله إن أحدكم ـ أو الرجل ـ ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

وعن أنس بن مالك (رض) عن النبي (ﷺ) قال: «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفةٌ أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال أي رب ذكرٌ أم أنثى، أ شقيٌّ أم سعيد؟ فما الرزق، فما الأجل؟ فيُكتب كذلك في بطن أمه»[٩٩].

قال تعالى: (من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ)[١٠٠]: (مخلقةٍ): مصورة (وغير مخلقة): السقط.

(وما تدري نفسٌ): كائنة من كانت. نكرة في سياق النفي فتعم كل نفس.

(ماذ تكسب غداً): في دنياها وأخراها.

(وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت): في بلدها أو غيره. قال (ﷺ): «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة»[١٠١].

عن ابن عمر قال: توفي رجل في المدينة ممن ولد بها فصلى عليه النبي (ﷺ)، فقال: «يا ليته مات بغير مولده»، قالوا: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده الى منقطع أثره في الجنة»[١٠٢].

وعن ابن عمر قال: «مفاتيح الغيب خمس»[١٠٣] ثم قرأ الآية.

الهوامش:

١ ـ سورة الحج: ٥.

٢ ـ السلسلة: (١٢٢١). الألباني.

٣ ـ صحيح الجامع: (١٦١١٦). واللفظ من المشكاة: (١٥٩٣). النسائي: صحيح سنن النسائي للألباني: ١٧٢٨.

٤ ـ البخاري: تفسير سورة الأنعام. وأحمد: ٢ / ١٢٢.

٥ ـ هذه التعريفات نقلاً عن كتاب قواعد التفسير لخالد السبت من ص ٢٥ ـ ٢٩.

٦ ـ انظر الصحاح (مادة: فسر ٧٨١ / ٢)، المصباح المنير (مادة: فسر) ص ١٨٠، لسان العرب (مادة: فسر ١٠٩٥ / ٢)، المفردات (مادة: فسر) ص ٦٣٦، مجمل اللغة (مادة: فسر) ٣ / ٧٢١، معجم مقاييس اللغة (مادة: فسر) ٤ / ٥٠٤، وللاستزادة راجع: العين (مادة: فسر) ٧ / ٢٤٧، تهذيب اللغة (مادة: فسر) ١٢ / ٤٠٦، الكليات: ٢٦٠، الإتقان: ٤ / ١٦٧، التحبير: ص ٣٦، تفسير البحر المحيط: ١ / ١٣، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٤٧، مقدمتان في علوم القرآن (مقدمة كتاب المباني لنظم المعاني) ١٧٣، تفسير الخازن: ١ / ١٤، غرائب القرآن: ١ / ٥٧، المعجم الوسيط (مادة: فسر) ٢ / ٦٨٨، التحرير والتنوير: ١٠ / ١.

٧ ـ انظر: زاد المسير: ١ / ٤.

٨ ـ معجم مقاييس اللغة: (مادة: فسر) ٤ / ٥٠٤.

٩ ـ انظر: البرهان: ٢ / ١٤٧.

١٠ ـ انظر: فتح البيان: ١ / ٢٤.

١١ ـ انظر: الصحاح (مادة: فسر) ٢ / ٧٨١.

١٢ ـ انظر اللسان (مادة: فسر ١٠٩٥ / ٢)، وانظر المفردات (مادة: فسر) ص ٦٣٦.

١٣ ـ انظر: القاموس (مادة: فسر) ص ٥٨٧، وانظر شرحه تاج العروس: ٣ / ٤٧٠.

١٤ ـ الصاحبي: ٣١٤.

١٥ ـ انظر: معجم مقاييس اللغة: (مادة: فسر) ٤ / ٥٠٤، وانظر مجمل اللغة: (مادة: فسر) ٣ / ٧٢١.

١٦ ـ تهذيب اللغة: (مادة: فسر) ١٢ / ٤٠٧، وانظر: اللسان: (مادة: فسر) ٢ / ١٠٩٥، العين: (مادة: فسر ٢٤٨ / ٧).

١٧ ـ انظر: الصحاح: (مادة: فسر) ٢ / ٧٨١.

١٨ ـ انظر: الألوسي في التفسير: ١ / ٤.

١٩ ـ انظر: الصاحبي: ص ٣١٤، المجمل: (مادة: فسر) ٣ / ٧٢١، معجم مقاييس اللغة: (مادة: فسر) ٤ / ٥٠٤.

٢٠ ـ تهذيب اللغة: (مادة: فسر) ١٢ / ٤٠٦.

٢١ ـ انظر: الصحاح: (مادة: فسر) ٢/٧٨١.

٢٢ ـ انظر: اللسان: (مادة: فسر) ٢ / ١٠٩٥.

٢٣ ـ انظر: القاموس: (مادة: فسر) ص ٥٨٧.

٢٤ ـ انظر: الإتقان: ٤ / ١٦٧، التحبير: ٣٦.

٢٥ ـ انظر: روح المعاني ١ / ٤، وانظر نحوه في البرهان للزركشي: ٢ / ١٤٧.

٢٦ ـ أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي البصري، إمام في الأدب والشعر ولسان العرب. توفي سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة. وعمره ثمان وتسعون سنة. سير أعلام النبلاء: ١٥ / ٩٦.

٢٧ ـ الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني، مولاهم البغدادي. إمام، محدث، نحوي. ولد سنة مائتين. وتوفي سنة إحدى وتسعين ومائتين. سير أعلام النبلاء: ١٤ / ٥.

٢٨ ـ انظر: تفسير البحر المحيط: ١ / ١٣.

٢٩ ـ البرهان: في علوم القرآن: ١٤٧ / ٢.

٣٠ ـ انظر: بصائر ذوي التمييز ٧٩ ـ ٧٨ / ١، التيسير في قواعد علم التفسير: ١٢٣ ـ ١٢٤.

٣١ ـ روح المعاني: ١ / ٤.

٣٢ ـ انظر: مقدمة جامع التفاسير: ص ٤٧.

٣٣ ـ انظر: الإكسير: ١ ـ ٢.

٣٤ ـ انظر: التيسير في قواعد علم التفسير: ١٢٤ ـ ١٢٥، ١٥٠، التحبير: ص ٣٧، الفتوحات الإلهية: ١ / ٢، البرهان للزركشي: ١ / ١٣، التسهيل لابن جزي: ص ٦، ٧، روح المعاني: ١ / ٤، البحر المحيط لأبي حيان: ١ / ١٣، ١٤، الإتقان: ٤ / ١٦٩، فتح البيان: ١ / ٧، التعريفات ٩١، كشاف اصطلاحات الفنون: ١ / ٣٣، الكليات: ٢٦٠، مناهل العرفان: ١ / ٤٧١ ـ ٤٧٢، ابن عاشور (التحرير والتنوير) ١ / ١١، حاشية مقدمة التفسير: ١٤١.

٣٥ ـ سورة لقمان (١ ـ ١١).

٣٦ ـ سورة البقرة: (٢).

٣٧ ـ سورة الإسراء: (٨٢).

٣٨ ـ البخاري: إيمان: ٣٧. ومسلم: إيمان: ٥٧. وغيرهما.

٣٩ ـ اللسان: فلح.

٤٠ ـ البخاري في الأدب المفرد: (١٢٦٥).

٤١ ـ البخاري في التاريخ: (٢١٧ / ٢١٢).

٤٢ ـ جميع هذه الأقوال تجدها في تحريم آلات الطرب للألباني رحمه الله تعالى.

٤٣ ـ البخاري: ٥٥٩٠. رواه هنا بصيغة التعليق، ولكنه موصول، فهشام بن عمار هو شيخ البخاري.

٤٤ ـ الترمذي: ١٠٣١ البيوع، وابن ماجة: ٢١٦٨. وحسنه الألباني في صحيحيهما.

٤٥ ـ سورة الأنعام: (١٥٣).

٤٦ ـ سورة يوسف: (١٠٨).

٤٧ ـ سورة الكهف: (١١٠).

٤٨ ـ اللسان: عزز.

٤٩ ـ سورة الرعد: (٢).

٥٠ ـ سورة الحج: (٦٥).

٥١ ـ سورة النحل: (١٧).
٥٢ ـ سورة لقمان: (١٣).
٥٣ ـ أحمد في الزهد.
٥٤ ـ الجنى الداني: ٢٥٣.
٥٥ ـ سورة الروم: (٤٤).
٥٦ ـ المنهج الأسمى: ٢ / ٥٥.
٥٧ ـ المصدر السابق.
٥٨ ـ البخاري: (٤٧٧٦).
٥٩ ـ سورة الزمر: (٦٥).
٦٠ ـ سورة الأحقاف: (١٥).
٦١ ـ الصحيحة للألباني: (٤١٧). وقال أخرجه أحمد وأبو داود والبخاري في الأدب.
٦٢ ـ أحمد: ٤ / ٤٠٣. الترغيب والترهيب للألباني: ١ / ١٩.
٦٣ ـ مسلم: (١٧٤٨). والآية من سورة العنكبوت (٨).
٦٤ ـ صحيح الجامع: ٧٥٢٠، والصحيحة: ١٧٩.
٦٥ ـ الصحيحة: ١٨١.
٦٦ ـ جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر. في البر والصلة، باب تحريم الظلم: ٥٥ (٢٥٧٧). وهو حديث قدسي.
٦٧ ـ سورة الزلزلة: (٧ ـ ٨).
٦٨ ـ صحيح ابن حبان: صوم المسافر، ٣٥٦٨ عن ابن عمر. وإرواء الغليل: ٣ / ١١.
٦٩ ـ نضرة النعيم: ١١ / ٥٣٧٧. والمَذِرة. من المذر وهو الفساد، وامرأة مذرة قذرة: رائحتها كرائحة البيضة المذرة.
٧٠ ـ الترمذي: (٢٠٢٥)، وحسنه الألباني.
٧١ ـ سورة الفرقان: (٦٣).
٧٢ ـ رواه الطبراني في الكبير (١٣١ / ٧)، وهو حسن بشواهده.
٧٣ ـ أحمد: (٨٠٩٢). عن أبي هريرة.
٧٤ ـ سورة لقمان: ٢٠ ـ ٢٨.
٧٥ ـ الجنى الداني: ٣٣.
٧٦ ـ سورة النحل: (١٢٥).
٧٧ ـ الصحيحة: ٢٧٣.
٧٨ ـ سورة البقرة: ١٧٠.
٧٩ ـ فتح القدير: ٤ / ٣١٨.
٨٠ ـ سورة البقرة: ٢٧٢.

٨١ ـ سورة الكهف: (٦).
٨٢ ـ سورة الرعد: (١٠).
٨٣ ـ سورة ق: ١٦.
٨٤ ـ سورة الكهف: (١٠٩).
٨٥ ـ سورة لقمان: ٢٩ ـ ٣٤.
٨٦ ـ البخاري ٤٨٠٢، ٤٨٠٣.
٨٧ ـ اللسان: فلك.
٨٨ ـ مسلم: ٢٩٩٩. صحيح الجامع: ٣٩٨٠.
٨٩ ـ اللسان: ظلل.
٩٠ ـ سورة النور: (٤٠).
٩١ ـ سورة الإسراء: (٦٧).
٩٢ ـ سورة العنكبوت: (٦٥).
٩٣ ـ سورة فاطر: (٣٢).
٩٤ ـ لسان العرب: ختر وجحد.
٩٥ ـ لسان العرب: جزى.
٩٦ ـ الدارمي: رقاق ٢٣.
٩٧ ـ أبو داود: علم (١). والترمذي: فضائل القرآن: ١٠. وأحمد: ٣ / ٢٥٢، ٤٠٧.
٩٨ ـ سورة عبس: (٣٤ ـ ٣٧).
٩٩ ـ سورة النساء: (١٢٠).
١٠٠ ـ سورة الحديد: (٢٠).
١٠١ ـ مسلم: الإيمان: (٩). والبخاري: (٥٠).
١٠٢ ـ سورة الأعراف: (١٨٧).
١٠٣ ـ البخاري: (٦٥٩٤ ـ ٦٥٩٥).